الصراحة

للأستاذ عباس أبو شوشه

إن من أحب أخلاق الناس إلىّ أن يكون المرء صريحا واضحا يعرف باطنه من ظاهره، وأن تكون صفحته مرآة صافية لنفسه وأساريره وعنوانا واضحا لسريرته ، وأن يكون شجاعا بين الولاء شامس العداء ، فتعرفه صديقا يرتجى أو عدوا يتقى ، ولا تخدعك منه ابتسامة براقة هى سنا النار المتأججة فى الضلوع ، أو كلمة معسولة يختفى فى شهدها سم ناقع ، أو بسطة باع وراءها صدر ضيق وقلب مريض.

و يودّى لو ساد هذا الخلق الكريم فى الناس وربا غرسه فى رباهم ، فقد طالما كانت الصراحة عاملا نافعا فى تصافى النفوس وتوثيق عرى القلوب ، وطالما حلت الصراحة مشكلات وأخمدت نارا لولاها لاحتدم سعيرها ولتفاقم خطرها ، فكم من أخ تبدر منه لأخيه بادرة غير مقصودة أو تكون صادرة عن حسن نية وصفاء طوية ولأمر ما تؤول على غير وجهها فيسرها هذا فى نفسه و يدعها تحز فى قلبه و يحمله ذلك على سوء الظن بكل ما يصدر عن صاحبه وهو برئ ، ثم لا يلبث أن ينقلب الإسرار ضغنا ، ثم يصير الضغن بغضا ، ثم يشتد البغض فيصير عداوة تتأصل جذورها و يتعذر استئصالها ، ولو حلت الصراحة محل الإسرار، واستوضح الأخ أخاه سر بادرته ، واستكشف دخيلة نفسه — فان كان مخطئا صوّب خطاه — لمحا العتاب أثره وظل الوداد بينهما صفوا .

وكم من زوجين يلحظ أحدهما على الآخر عارضا من حزن أو طارئا من فتور قد يكون مصدره وعكة من سقم أو ضيقا يحدث من أحداث الحياة لا يمت بصلة قريبة أو بعيدة لحياتهما الزوجية فيخاله نفرة من جانب شريكه ، وقد يحمله الإدلال أو تأخذه العزة فيقابل الفتور بفتور ، و يقارض بالانقباض انقباضا ، فتتباعد مسافة الخلف وتتسع هوة الشقاق، وتلتهب الجمار المتوارية تحت الرماد ثم لا تلبث أن تعصف بها عاصفة شر تثير غبارها وتطير شرارها فتصبح جنة البيت جحيما يصلى بحره أناس و يكتوى بناره أطفال لم يكونوا من جناتها، ولو ترفق كل بصاحبه ونظر إلى المسألة بغير المنظار الأسود الذى نظر به، وحاول أن يسائل فى رفق وفى أناة عن سر الألم حتى يستشفه و يكشف عن أس العلة فيأسوها تفاديا لكارثة قد تكون نتيجتها و بالا ولا نصيب الذين ظلموا خاصة .

وكم من رئيس يحنو على مرءوس فيكرمه ويقربه لكفاية خاصة وينزله من نفسه منزلة الولد من الوالد أو الأخ من أخيه ، فتوغر الغيرة صدور الحساد والمنافسين فلا يقر لجنوبهم مضجع حتى يجدوا ثغرة ينفذوا منها إلى ذينك القلبين الصافيين فيفرقوا بينهما ، وقد يصاب ذلك الابن البرىء ببطشة تطيح به عن جهل بالحقيقة ، ولو تدخلت الصراحة بادئ ذى بدء لتكشفت سحائب الشك ولمدأت العاصفة وقطعت ألسنة المشائين .

ومما يرثى له أن نرى فى هذا الزمان طائفة من صيادى المنافع قد احترفوا المداهنة وحذقوا المداورة ، وأمرع فى نفوسهم الخداع واستغلظ فدر بوعهم النفاق ، فهم فى ظاهرهم أولياء أوفياء لكل صاحب سلطان يخلقون له المحامد ويتغنون له بالمدائح ويطرون كل مايصدر عنه حسنا كان أو قبيحا ، على حين أنهم يلقون على ما فى صدورهم من جمار الحسد ندى من المراء يحد من إذكائها إلى حين ، ويتربصون به الدوائر ، حتى إذا دالت أيامه والدنيا دول ، عادت تلك الجمرات وهى أشد وقدا وأذكى لهبا ، وراحوا يبسطون فيه ألسنتهم بكل نابية ويتمنون له كل دهياء داهية ، ويقلبون محاسنه سيئات ومحامده دمنات ، ومن العجب العجاب أن يجد أمثال هؤلاء لبضاعتهم سوقا نافقة فى ساحات بعض ذوى السلطان من ذوى اللب والعقل الذين لاتعوزهم الفطنة ولا تنقصهم التجاريب . وفى مثل هؤلاء جاء فى التنزيل الحكيم على رسول الله الكريم (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) ويكمل وصفهم قوله تعالى :

(إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا . الذين يتربصون بكم فان كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا . إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا . مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) .

وعندى أن أمثال هؤلاء لو أوصدت دونهم الأبواب وصمت عنهم الأسماع وغضت عنهم الأبصار ، ووجدوا عصا التأديب حاضرة ، لقبعوا فى جلودهم ووقفوا عند خطهم واستقاموا على الطريقة صاغرين .

وكم يكون أصلح للدولة وأجدى على الأمة أن نقتدى بشىء من صراحة السلف الصالح بين الحاكمين والمحكومين ، تكشف عن نواحى النقص وتمهد الطريق للاصلاح ، وبحسبى إيراد ما روى عن عبد الرحمن بن زياد الافريقى أنه قدم على أبى جعفر المنصور فسأله أبو جعفر " يا عبد الرحمن كيف ما مررت به من أعمالنا إلى أن وصلت إلينا ؟ " فقال " أعمالا

فاسدة سيئة، وظلما فاشيا، وظننت أن ذلك لبعد البلاد عنك فجعلت كلما دنوت منك أرى الأمر أعظم " فأطرق المنصور ثم قال " كيف لى بالرجال يا عبد الرحمن ؟ " فقال " أليس عمر بن عبدالعزيز يقول : السلطان بمنزلة السوق يجلب إليها ما ينفق فيها ، فان كان برا أتوه ببرهم، و إن كان فاجرا أتوه بفجورهم ؟" فقال المنصور : صدقت .

وما روى عن عوف بن مالك رضى الله عنه أن جماعة دخلوا على أمير المؤمنين سيدنا عمر ابن الخطاب فقالوا:" والله ما رأينا رجلا أوفى بالقسط ولا أقول للحق ولا أشد على المنافقين منك يا أمير المؤمنين، وأنت خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم " وكان عوف حاضرا فقال " كذبتم والله! لقد رأينا من هو خير منه بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم " فقال عمر " من هو يا عوف ؟ " فقال " أبو بكر " فقال عمر " صدق عوف وكذبتم . لقد كان أبو بكر أطيب من ريح المسك وأنا أضل من بعير أهلى " .

ألا فلتكن فضيلة الصراحة من أخلاقنا، ولتكن لنا فى سير العاملين الصالحين قدوة حسنة عسى أن يهدينا الله صراطا مستقيما .

عباس أبو شوشه
بوزارة الشؤون الاجتماعية

"يجابهُ ، لا يخفى السنان ، فلا ترى

له غضـــبا يأتى العـــدو ملثما ! "